قرأت لكم

إعداد: ميراي يونس
mireilleyounes@almassira.com

Regina Sneifer

«ألقيت السلاح، امرأة في حرب لبنان»: ريجينا صنيفر... كتبت لتتلو شهادة

كانت في الثالثة عشرة من عمرها، ريجينا صنيفر، يوم اندلعت الحرب في لبنان العام ١٩٧٥. مذذاك سكنتها الصور المرعبة من خطف وقتل وتعذيب ومجازر. «جنون الحرب شملني أيضا، كما تقول. اليوم أعرف أنها لا تحل أمرًا. بل هي تجرف كل شيء في طريقها».

من أجل لبنان، رفيق السلاح الذي خطفه أخوة مسيحيون مثله ولم يعد، من أجل أصدقائها الذين لم يعطوا نعمة السكون في التراب، تحكي ريجينا صنيفر اليوم قصتها في كتابها: «ألقيت السلاح، امرأة في حرب لبنان». طول عشرين عامًا، مزّقها الحمل الثقيل، فقررت أن تتكلم لتتحرر من هواجسها وخزيها وشعورها بالإثم. من أجل ابنها تكتب أيضًا. «أنا لن أحدثك عن الحرب، كما تشرح، بل سأقص لك قصتي معها. لن أبرر نفسي ولن أشتكي. أنا أكتب لأتلو شهادة... ولأتحاشى ألّا ينجرف آخرون في أوهام جديدة تقود إلى الحرب. بكل قواي، سأحاول».

سيرتها الذاتية ستطعمها صنيفر بأحداث مفاصل طبعت تاريخ لبنان الحديث، لتتوقف بعدها عند كل مراحل الحرب: من اندلاع شرارتها الأولى والمعارك مع الفلسطينيين والسوريين وصولاً إلى «قتال الأخوة» وتشرذم المسيحيين بعد الإنتفاضات المتتالية التي عرفتها القوات اللبنانية عامي ١٩٨٥ و١٩٨٦. وكانت صنيفر إحدى المقاتلات. انضمّت إلى المقاومة المسيحية العام ١٩٨٠ وهي في الثامنة عشرة لإيمانها بالقضية. فرحت بالنصر ككل رفاقها يوم انتخب بشير الجميل رئيسًا، وشعرت بالضياع مثلهم بعد اغتياله العام ١٩٨٢. وفي فصل من الكتاب تحت عنوان «البحث عن قائد جديد» ستتحدث صنيفر عن سطوع نجم سمير جعجع. فطالبة الصحافة التي التحقت بمكتب الإعلام التابع للقوات اللبنانية العام ١٩٨٣، وأسهمت في إصدار مجلة «المسيرة»، التقت «القائد» بعد «حرب الجبل» وأعجبت بحزمه وثقته بنفسه... وقررت أن تتبعه.

لكن ما ستعيشه صنيفر العام ١٩٨٦ سيزرع الخوف والخيبة والغضب في نفسها. عشرات المقاتلين المناصرين لإيلي حبيقة تمّ توقيفهم أو سجنهم أو قتلهم. «لم أستطع أن أقف مكتوفة وأنا أشهد اغتصاب كرامة رجال عرفتهم دومًا. احترامًا لهم ولنفسي قررت أن أترك كل شيء. كان الأمر محتومًا». وعليه قدمت صنيفر استقالتها من القوات اللبنانية وآخر عيد ميلاد أمضته في لبنان كان في السجن مع «أخوة» لها، من أجلهم قررت نبذ العنف واحترام الحياة.

إلى باريس رحلت صنيفر العام ١٩٨٧. ويوم عادت مع ابنها فادي لتعرّفه إلى لبنان فاجأتهما حرب تموز العام ٢٠٠٦. وعاد الخوف. «اعتقدت أن خبرتي الطويلة ستبعد عني هذا الشعور، تكتب صنيفر. أنا التي تدّعي العمومية (الكونيّة) والأنسيّة وعشق «المتنورين»، عدت لتنتابني الشكوك والمخاوف التي عرفتها قبل ثلاثين عامًا. ها أنا أدخل فصلاً جديدًا من القصّة ذاتها».

ريجينا صنيفر حضرت إلى بيروت أيامًا لتسويق كتابها هذا، وأقامت حفل توقيع له في مجمع «ABC Mall" في الأشرفية قبل يومين من انفجار عبوة في أحد المرائب القريبة منه... ريجينا صنيفر تشهد اليوم حربًا جديدة، هي، كالعادة، حرب الآخرين والمأجورين والإرهابيين على أرض لبنان... فهل من يسمع دعوتها إلى رمي السلاح ونبذ العنف؟!

ريجينا صنيفر من مواليد بيروت، وهي تعيش في فرنسا منذ العام ١٩٨٧. بعدما درست الإعلام في لبنان، حازت في باريس دبلومًا في الجغرافيا السياسية. العام ١٩٩٤ نشرت أول كتاب لها: "حروب مارونية". ثمّ عادت ونالت شهادة عليا في التسويق، وتعمل اليوم في مجال الإعداد. كتابها "ألقيت السلاح، امرأة في حرب لبنان" نشر أولاً في فرنسا، وقدمّ له عميد الجامعة الكاثوليكية في باريس البروفسور جوزيف مايلا.

صنيفر لـ"المسيرة": همي ألا تنعدم القيم

أثناء وجودها في بيروت، كان للمسيرة هذا الحديث مع ريجينا صنيفر:

: لو عادت ريجينا صفير إلى الوراء وتوجب عليها حمل السلاح من جديد، هل تعاود الكرة؟

ليس مع درجة الوعي التي بلغتها اليوم. على الإنسان أن يمر بتجارب ليفهم حقيقة الأمور. يا للأسف، لم يفهمنا أحد الحقيقة. في السابعة عشرة، لم يكن لدي الوعي الذي أملكه اليوم. هذا هو المسار الفردي. يجب توعية الفرد وليس المجموعة.

لو فكر كل مقاتل في الماضي برمي السلاح، ما الذي كان سيحصل بلبنان؟

الكتاب نقد ذاتي. وأنا لا أحمّل المقاتلين مسؤولية ما آل إليه الوضع في لبنان. فهم لم يضحّوا بحياتهم حبًا بالحرب والموت. ثمّة شيء حرّكنا لنشارك في الحرب: حبّ الوطن، الدفاع عنه، حمايته، أداء دور إيجابي... الذين حاربوا كانت نياتهم سليمة. أنا ألوم الذي كان عنده مقدرة على وضع حدّ للحرب. أعني السياسيين الذين كان في استطاعتهم إيجاد مئات الوسائل لحل الصراعات بطريقة سلمية. في الحرب توجد فئتان: الصغار أو الأولاد الذين يقتنعون بالقضية ويموتون في سبيلها؛ والسياسيون أي الدولة التي يتوجب عليها فرض النظام. عندما يصبح السلاح في يد الشعب يعني ذلك خللاً في النظام السياسي، أي أنه غير قادر على حماية الشعب.

هل أنت نادمة على تجربتك هذه؟

لا أقول أنني نادمة، بل أعترف أنني أخطأت عندما أرى نتائج الحرب والإنزلاق الذي وصلنا إليه. أكرر، في السابعة عشرة ،لم يكن في إمكاني فعل شيء آخر. لذا أنا غير نادمة. أشعر اليوم أنني قمت بـ"إعادة تأهيل" لنفسي مع كتابي هذا. كانت الحرب أشبه بنفايات خزنتها في أعماقي، فحوّلتها كلمة وتجربة إيجابية مفيدة، هي التي كانت كلها سلبيات في حياتنا. كان من الممكن أن أندم لو لم أشتغل على ذاتي. أنا أحاول وليت في استطاعتي تغيير الأمور الماضية كلها.

ما الفرق الذي لحظته منذ وصولك إلى بيروت بين لبنان الأمس ولبنان اليوم؟

شعرت بالخوف والقلق السائدين من اندلاع حرب جديدة. لكن خوفي الأكبر ممّا يحصل في عمق اللبناني. هناك قيم انعدمت، وهي التي كانت تميز لبنان الذي أعرفه. المظاهر طاغية إلى حد أن الناس تعاموا عن القيم الصحيحة. ما مكنني من الخروج من الحرب هو القيم الإنسانية الثابتة فيّ. صحيح هناك فقر أكثر، لكن المخيف هو غياب الفكر، وهذا يعني موت الإنسان. كان اللبناني مثالاً في الثقافة والعلم والانفتاح. حتى الإعلام بات مشاركًا في تغييب الفكر ويكفي متابعة برامج التسلية السخيفة ليدرك الإنسان الدرك الذي بلغه لبنان. الناس أضاعوا نقاط ارتكازهم... وإذا أضفنا الحرب على كل ذلك، تكون كارثة بحق. ما مكننا نحن من الصمود خمسة عشر عامًا هو وجود القيم في حياتنا وارتكازنا عليها.

عمّ تفكر ريجينا صنيفر أن تكتب اليوم؟

أنا أعشق الكتابة وأتمنى أن أكتب بعد اليوم عن أشياء جميلة. هذا الكتاب أتعبني. خرج مني إلى الضوء بصعوبة. كتابي الأول كان وليد عقلي وتفكيري. أما هذا الكتاب فوضعته أعماقي. بعد أن أرتاح قليلاً سأنصرف لترجمة أفكار تشغلني منذ زمن. كأن أكتب مثلاً عن والدة جبران خليل جبران التي كانت حياتها سلسلة نضالات، وعلى رغم ذلك أعطت الكون عملاقًا اسمه جبران.

ما الرسالة التي تحبين أن توصليها إلى ابنك وإلى الأجيال الجديدة؟

قلت لهم كلمة بهذا المعنى في حفل التوقيع أختصرها بالآتي: قلت لهم أنا من جيل الحرب، أتيت لأكلمهم على الحرب لئلا يكونوا سجناء التاريخ ولئلا تتكرر تجربة الحرب. و"كل الشطارة" في نقل الكلام الصحيح لأن في إمكان الكلمة أن تجرح أو تشفي. يمكن الكلمة أن تجرح إذا حملت حقدًا. وما يشفي هو الكلمة الصادقة. حذّرت الشباب أولاً من محاولات البعض معاودة استعمال قوة الحياة فيهم لمصالح محدّدة، ونبهتهم إلى أن الحياة أغلى ما في الدنيا وعليهم ألّا يهبوها مجانًا لخدمة مصالح الغير. طلبت منهم من ثمّ أن يفرقوا بين الحقيقة والكذب. يجب أن تكون الثوابت موجودة حتى يستطيعوا التفريق بين الكلمة الصادقة والكلمة الكاذبة. المهم أنهم لبنان الغد، وهم قادرون على الدمار إذا أرادوا، وقادرون على حب الحياة والانفتاح إذا شاءوا. ولو اندلعت حرب جديدة، يمكن السلام أن ينتصر. أنا أعوّل هنا على موقف الشخص وليس على المجموعة. يجب أن يتعلم اللبناني بناء "الأنا" أكثر والخروج من غلبة "النحن".